المحاضرة السابعة:البعد الإيديولوجي في الرواية العربية.

1-الأيديولوجيا: الضبط الاصطلاحي:

وصف عبد الله العروي المصطلح أي الأيديولوجيا بعلم الأفكار ووصفها شكري ماضي بأنها نظام من الأفكار والمفاهيم الاجتماعية، أي مجموعة التصورات التي تعبر عن مواقف محددة تجاه علاقة الإنسان بالإنسان وعلاقة الإنسان بالعالم الطبيعي وعلاقته بالعالم الاجتماعي.

وإذا كان التغير الاجتماعي يؤدي إلى تغير مفاهيم الإنسان عن نفسه وعن المجتمع من حوله فان الأيديولوجيا تتغير من مرحلة إلى أخرى ومن عصر إلى آخر، وبما أن المجتمع ليس كلا متجانسا فإننا نجد داخل المجتمع الواحد أيديولوجيات متعددة تعبر عن تباين القوى الاجتماعية ومصالحها المتعارضة

الأيديولوجيا إذن مجموعة من المواقف المجددة المتناسقة والأدب من ناحية ثانية هو التعبير بالكلمة عن موقف الأديب من المجتمع أو من الحياة حوله، فهل هناك علاقة بين الأدب والايدولوجيا؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب، فما مدى هذه العلاقة وشكلها؟ ثم على أي حد تؤثر أيديولوجيا الأديب في عمله الأدبي؟ وهل هذا التأثير إيجابي دائما؟ أي هل يزيد من قيمة العمل الأدبي أم يخفضها؟

لا شك أن أيديولوجيا الكاتب تؤثر في رؤيته للأدب ودوره ووظيفته وتنعكس على العمل الأدبي موضوعا وبناء ومثال ذلك تجربة الشعر المعاصر في أدبنا العربي قد نشأت نتيجة أسباب متعددة من ضمنها تمرد الشعراء المعاصرين على الأيديولوجيا السائدة.

عن كل عمل أدبي ينطوي على موقف، بل إن تعدد مواقف الأدباء هو انعكاس لتعدد انتماءاتهم الاجتماعية والأيديولوجية، فالأديب في قصيدته أو روايته يقدم لنا رؤية محددة من

المجتمع والحياة من حوله وهذه الرؤية قد تكون ممتثلة للواقع وقد تدعو للتصالح معه كما تدعو إلى تجاوزه وتخطيه ويمكن القول أيضا أن الرؤية الفنية المتصالحة تخدم الأيديولوجيا السائدة وتقدم العالم الفني ساكنا مستقرا وهو ما يفقد العمل الأدبي مسحة الحياة والحركة، أما الرؤية التجاوزية فإنها تقدم العالم الفني مليئا بالحركة والحيوية وهو ما يرتقي بالعمل الأدبي من الناحية الفنية والجمالية.

إن كل ما تقد يؤكد العلاقة بين الأدب والايديولوجيا علاقة حميمية وهنا نصل على سؤال هام مؤداه هل الأهم في العمل الأدبي الفكرة والموقف الأيديولوجي أم الإطار الفني؟

هناك من يهتمون سوى بالفكرة أو الموقف بغض النظر عن الصياغة الفنية وهؤلاء يمارسون ما يسمى بالنقد الأيديولوجي، وهناك من لا يهتمون بالفكرة والموقف بل همهم ينصب على الإطار الفني أو الصياغة والتشكيل اللغوي والفني وهؤلاء يمارسون ما يسمى بالنقد الفني أو الجمالي الخالص وكلاهما مخطئ لأن الاهتمام بالفكرة بغض النظر عن متطلبات الصياغة الأدبية يجعل العمل الأدبي أقرب إلى ما يسمى بالأدب الدعائي ومعروف أن الأدب الدعائي لأية فكرة يكون منفرا لأن الأدب يعتمد على الإيحاء والإيماء والتصوير والتجسيد وليس مهمته تقديم الأفكار، كما أن الاهتمام بالإطار الفني واللغوي دون إعارة للفكرة أو الموقف أي اهتمام يعد عملا قاصرا لأن العمل الأدبي الذي يخلو من موقف الأديب يفقد وزنه لأنه يفتقد إلى شرط أساسي من شروط نجاح التجربة الأدبية المتمثلة في التواصل مع القراء لأن الأديب يكتب من وحي المشكلة التي تؤرقه وهو يهدف من وراء كتابته أن يشاركه أكبر عدد ممكن من القراء التفكير فيها ووضع الحلول.

إن كل ما تقدم يوضح أن العلاقة بين الأدب والايديولوجيا علاقة حميمية وإذا قلنا مع سارتر أن كل قول ينطوي على موقف، فإننا نستطيع القول بأن الأدب جزء من الأيديولوجيا

ومع ذلك فمن الضروري التأكيد بأن لكل منهما استقلالية نسبية، فكل منهما يتطور وفق نسق مختلف عن الآخر وكل منهما يتفاعل مع العلاقات الاجتماعية بطريقة خاصة، بالإضافة إلى ذلك فإن الأيديولوجيا نظام من المفاهيم والتصورات الاجتماعية فهي محددة وواضحة بينما الأدب والفن عامة يتمرد دوما على القواعد والقوانين لذلك فان العلاقة بينهما مركبة ومتداخلة وليس أدل على ذلك سوى وجود أعمال أدبية مناقضة لأيديولوجيا أصحابها بل لأقوالهم مثل الروائي بلزاك الذي كان مؤيدا للملكية البورجوازية على الصعيد السياسي، لكن إنتاجه الروائي جاء مضادا لها وهذا لا ينفي قولنا بأن أيديولوجيا الأديب تؤثر في عمله فكرا وفنا.

2-الرواية العربية والأيديولوجيا:

إن الحديث عن الرواية والأيديولوجيا يحيلنا إلى تلك الصراعات والمشاحنات الأيديولوجية التي تعج بها النصوص الروائية، فكلما غاص القارئ في ثنايا الرواية كلما رسمت له معالم الأيديولوجيا واتضحت فهي شديدة الاتصال بصراع الشخوص والأبطال .وتبقى الرواية كأيديولوجيا تعبيرا عن تصورات الكاتب بواسطة تلك الأيديولوجيات المتصارعة، لأنها تدخل إلى النص الروائي كعناصر جمالية، تؤدي وظيفة التشكيل لمدة العمل.

وإذا عدنا إلى الرواية العربية وبحثنا في تمظهرات الأيديولوجيا فإننا نجد أغلب هذه الرواية لا تخرج عن نمطين إثنين هما:

-الصراع الداخلي /أيديولوجيا وطنية.

-الصراع الخارجي/صراع مع أيديولوجيا الآخر الغربي

فحضور الأيديولوجيا في العمل الأدبي يكون على شكل شفرات منظمة ومقصودة يوجهها الكاتب وعلى القارئ تحليل هذه الشفرات وربطها ببعضها البعض للوصول إلى المعنى

الإجمالي الذي يحمله النص، وإذ حاولنا الوقوف عند علاقة الرواية بالأيديولوجيا فإننا سنقف قول عمار بلحسن أن الرواية مكان تجميع إيديولوجيات أو عناصر إيديولوجيات، فالنص الروائي حقل ثقافي اجتماعي فكري فلا أدب بلا أيديولوجيا مهما حاول الأديب أن يتنحى بذاتيته عن المشهد السردي فان الفكر الأيديولوجي سيلج النص مهما وضعت أمامه حواجز.

وقد قدم لنا ميخائيل باختين تجديدا للأيديولوجيا وفق تمظهراتها في النص الروائي وقسمها إلى قسمين اثنين هما:

إيديولوجيا النص :وهي مجموع الأيديولوجيات التي يعبر عنها النص من خلال أقوال وأفعال وتفكير الشخصيات.

أيديولوجيا المؤلف :ويعتبرها باختين جزءا من الأيديولوجيات المتصارعة داخل النص الروائي لكنها تكون في العادة تحت قناع الذوات الفاعلة سريا، ومن هذا المنطلق ظهر حسب باختين شكلان للرواي، **الرواية المونولوجية:** أحادية الصوت فيها يتجبر الصوت الواحد على بقية الأصوات و**الرواية الحوارية:** متعددة الأصوات وهو النوع الأسمى حسب رأيه.

ومن أبرز الروايات العربي التي جسدت الصراع الأيديولوجي نذكر:

رواية زينب لمحمد حسن هيكل، موسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح، الجازية و الدراويش للطاهر وطار، عائد إلى حيفا لغسان كنفاني، تيميمون لرشيد بوجدرة.....

المراجع:

-شكري عزيز ماضي: في نظرية الأدب، ط1، دار المنتخب العربي، لبنان، 1993.

-عمار بلحسن: الأيديولوجيا والأدب، دط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.